تاريخ الإرسال: 2014/02/03 - تاريخ القبول للنشر: 2014/05/25 تاريخ النشر: 2014/06/29

# إشكالية القصيدة القديمة في النقد العربي المعاصر
## النص والقراءة

محمد قراش

جامعة زيان عاشور بالجلفة

سياق الإشكال :

لقي شعر ما قبل الإسلام اهتماما خاصا من الدراسة وإعادة القراءة في النقد العربي الحديث والمعاصر وكان ذلك الاهتمام النقدي القرائي في جانب منه وعيا من الباحثين العرب المعاصرين بأهمية مدونة الشعر القديم كتراث نموذجي للقصيدة العربية وكان من جانبه الآخر استئناسا أو تفاعلا مع تيار من البحث في شعرنا القديم شقه الدارسون المستشرقون وباحثون غربيون في فترة مبكرة من عصر النهضة العربية الحديثة .

لقد اكتسب ذلك الاهتمام مشروعيته من عاملين متكاملين :

أولا : من جانب المتن نفسه باعتباره نموذجا للشعر العربي حيث صيغت بناء على تقاليده الشعرية شعرية القصيدة العربية حتى عصر النهضة العربية الحديثة وأصول النظرية النقدية ذاتها وهو منشأ تأسيسي في الثقافة العربية . ( إيقالد فاجنر ، 2008 ، ص : 20 )

ثانيا : من جانب المنهج النقدي المعاصر في تعدديته وتداخلاته العلمية واللسانية ودلالاته الثقافية باعتبار أصوله الغربية من جهة واشتغاله على سياقات التاريخية والأدبية العربية من جهة ثانية فضلا عن حجم الإشكالات الأدبية النقدية التي أثارها متصلة بنحل الشعر وعلاقته بالأسطورة ووحدة القصيدة وتأويلها .

إنها أهمية تنبع من هذا التقابل الجدلي القرائي بين النصين : النص الإبداعي والنص الواصف النقدي في أبعاد متعددة : جدل الماضي/الحاضر، القديم/الجديد ، الشفاهي/الكتابي ، جدل آفاق الثقافية المتعددة والمختلفة ولذلك يمكن صياغة إشكال القضية على النحو التالي : كيف أعاد النقد العربي المعاصر استقبال القصيدة القديمة في أبعادها الإشكالية : وجودها وحدتها تأويلها ؟

1/طه حسين : تأسيس القطيعة المنهجية

إن البحث في المسألة – استعادة القصيدة العربية الحديثة – لا يمكن أن يمر إلا عبر تلك اللحظة الدرامية التي فجرها المرحوم طه حسين بكتابه « في الشعر الجاهلي « الذي تبني فيه فرضيات المستشرق الانجليزي مرجليوث عن حقيقة القصيدة الجاهلية مثيرا بالشكل المستفز السؤال– القضية : انتحال الشعر الجاهلي ؟ ( طه حسين ، 2007 )

لقد اكتسبت أطروحة طه حسين طابعها الثوري الذي جلب عليه سخط المؤسستين الدينية والأدبية على حد سواء ليس فقط من تأكيدها على أن القسم الأكبر من مدونة الشعر القديم النموذج المتجذر بأصالته وسحره في ذائقة الإنسان العربي، هو تراث إنساني منحول صنعته أغراض الدين والسياسة واللغة بعد ظهور الإسلام ( طه حسين ،2007 ، ص : 71 )، ولكن أيضا بحكم ارتباط مسألة النحل هذه بقضية ظهور الإسلام والموقف من النص القرآني ذاته

بدا طه حسين – وتأكد ذلك مع مرور الوقت – وهو يرمي السؤال الذي يتمتع بكل خصائص التثوير والقطيعة بفضل ما حمل من اتجاه إلى تجاوز المقدس ، المغايرة ، الصدمة الثقافية في بؤرة التراث الذي تلتقي فيه عوامل العقيدة ، الانتماء الثقافي ، سلطة الماضي .

بهذا المعنى تحولت قصيدة الشعر القديم بكل قضاياها إلى إشكالية في القراءة النقدية المعاصرة ( مصطفى ناصف ، 1982 ) . ودون أن نغفل مستوى المواجهة الاجتماعية والسياسية والإعلامية الذي ترتب عن افتتاح قراءة الشعر القديم وحولها إلى قضية تاريخية إيديولوجية ، فإن السؤال النقدي المتصل بالقصيدة القديمة أخذ يتنامى في اتجاهه الإشكالي المتجدد عبر لحظات التحول الثقافي و المثاقفة مع الغرب .

2/أبعاد الإشكالية : من سؤال النحل إلى سؤال القراءة

لقد رفضت فكرة الانتحال من طرف بعض الدارسين وطفقوا يؤلفون حجج الثبوت والصحة والأصالة أمثال الغمراوي في كتابه «النقد التحليلي لكتاب في الشعر الجاهلي» و الرافعي في مؤلفه تحت راية القرآن وفي مرحلة لاحقة ناصر الدين الأسد ضمن كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» ثم تداخل السؤال مع قضية الوحدة في القصيدة بين مدافع عن إثباتها ومصر على النفي واستبعدت قضية وجود القصيدة مع المنظور الشفاهي باعتبار القصيدة القديمة ترتبط بمرحلة ثقافية يقع الخلاف في طبيعتها الكتابية أو الشفاهية . أما الجانب الفني المتعلق بالصورة فقد استجلب البحث في منشأ القصيدة وعلاقته بالأسطورة في تلك المرحلة التأسيسية من الثقافة العربية

لقد تطور البحث في القصيدة القديمة عبر تطور المنهج النقدي المعاصر الذي جدد كل مرة أدواته ومارس تجريبه المستمر ومن ثم فأن الأسئلة –حول الشعر الجاهلي – لم تستنفذ تلك هي الحقيقة التي تداول الباحثون على تأكيدها بل ( نفاجأ بأننا نرى الشعر العربي لم يسلم أسراره بعد وأن علينا أن نبذل جهدا مضاعفا لنتعلم من الشعراء مالم نكن نعلم ) (حسن البنا عز الدين ، 1987، التصدير )
وما فاجأ الناقد حسن البنا هو ذاته ما يؤكده الغذامي في متابعته لتطور السؤال النقدي عن حقيقة الشعر الجاهلي إذ ( ستضل الأسئلة قائمة ومستمرة حول الشعر الجاهلي ولن نصل الى إجابات تحسم التساؤل.. ) (لغذامي ، 1994 ، ص : 9)
إن الغذامي الذي ربط المساءلة المستمرة للشعر القديم بتجدد الفهم القائم على تثاقف ينجزه باحثون غربيون وعرب ، يدخل جدلا أضافيا في سياق أطروحته عن شفاهية الشعر الجاهلي تلك الأطروحة التي تبناها بعض الباحثين العرب ويتصل ذك الجدل بقضية رواية الشعر الجاهلي وأثرها في إضفاء ملاح خطابية وأسلوبية مغايرة لأصالة النص الإبداعي فإذا ( كان سؤال الشفاهية سؤالا عن الأصالة ، فإن ذلك سيشمل فيما يشمل سؤال الرواية رواية الشعر الجاهلي التي ظلت شفهية بالفعل وبالاصطلاح على مدى زمن طويل استمر حتى بعد تدوين الرواية . ذلك أن التدوين لم يكن نقلا للشفاهي إلى الكتابي ولكن تسجيل خطي للرواية الشفوية وهذا أبقى الشفاهية بكل شروطها وصفاتها ونتائجها وما نقرأه اليوم هو الشعر الجاهلي المروي وليس المدون . فالتدوين إذن

قد ثبت القيم الشفاهية في الشعر الجاهلي أورثنا إياها..) (الغذامي ، 1994 ، ص : 9)

3/القصيدة القديمة والمنظور الشفاهي : إبداع فردي أم الجماعي

الواقع أن الغذامي معتمدا الطرح الشفاهي في تناول القصيدة القديمة مؤسسا على نظرية لورد وبالي ( والتر أونج ،1994 ،ص:27 – 28) اتجه إلى تقديم تفسير جديد لتقاليد القصيدة القديمة يتجاوز ابستومولوجيا مناهج الدراسة القديمة وحتى الحديثة على السواء إذ هو يتأسس على ما تم ( اكتشافه من اختلافات أساسية بين طرق استيعاب المعرفة والصدور عنها في الثقافات الشفاهية من جهة وفي الثقافات المتأثرة بشكل عميق باستخدام الكتابة من جهة أخرى.. فكثير من الملامح التي كنا قد سلمنا بها في الفكر والأدب والفلسفة والعلم ليست ملامح لصيقة مباشرة بالوجود الإنساني في حد ذاته ولكنها خرجت إلى الوجود بسبب المصادر التي أتاحتها تقنية الكتابة للوعي الإنساني ، حتى لقد كان علينا لذلك أن نراجع فهمنا للهوية الإنسانية نفسها ) (عز الدين حسن البنا ، 1987، ص:12 )

وهذا الأساس الفلسفي المعرفي يوضح حرص النظرية الشفاهية ( على تبيين الجدل الفعال بين الكتابة بوصفها قوة تعيد بناء الوعي و الشفاهية من حيث هي نقيض للكتابة ثقافيا ونفسيا..) (عز الدين حسن البنا ، 1987، ص:12 )

فإذا كانت المناهج القديمة قد انطلقت من الاعتبار السائد أن الشعر الجاهلي هو إبداع كتابي ومن ثم فرضت نصه الشعري – بالضرورة – نصا فرديا مكتمل يمثل انعكاسا للذات وعزلتها عن المجتمع فإن المنظور الشفاهي نظر إلى قصيدة الشعر الجاهلي بوصفها تجليا لنشاط الإبداع الشفاهي الجماعي ، أو لمرحلة الانتقال من الشفاهية إلى الكتابية حيث ظهرت القصائد الجاهلية ضمن تقاليد النشاط الشفاهي الإبداعي للجماعة ، ومن ثم تشكلت نمطية صيغها وقوالبها ولغتها .

لقد برز المنظور الشفاهي في دراسة الشعر الجاهلي لدى الباحثين الغربيين أول الأمر منذ بداية السبعينات من القرن الماضي فيما قدمه جيمس ونرو سنة 1976 ضمن كتابه « الشعر النظم الشفهي في الشعر الجاهلي « ثم لدى مايكل زويتلر في كتابه « التقاليد الشفوية في الشعر الجاهلي « سنة 1978 .

وسرعان ما أخذ باحثون عرب بهذا المنظور استجابة للإغراء الذي طرحه بالنظر إلى ما يعرف بداهة من غلبة الطابع الشفهي والرواية على الثقافة العربية في فترة ما قبل الإسلام فكان من أهم البحوث أطروحة الدكتوراه للباحث عز الدين حسن البنا» الكلمات والأشياء « فبالإضافة إلى أنها استندت إلى المنظور البنيوي في التحليل )، فقد انطلقت من فرضية(2011 ’ Foucaut (Michel ) مستلهمة عنوان أحد الإعمال اللامعة لمشال فوكو أساسية تتعلق بإشكال الشفاهية مؤداها أن ( القصيدة الجاهلية كان تجسد مثالا عميق الدلالة على المجتمع الجاهلي كان يمر بمرحلة انتقال من المرحلة الشفاهية إلى المرحلة الكتابية (عز الدين حسن البنا ،1989، ص : 11)

ومن ثم تبرز اشكاليتها الأساسية حيث الموقف الجدلي بين مناهج كتابية نقدية معاصرة وبين قصيدة تجسد التقاليد الشفاهية ويقف الباحث كذات قارئة مرتبطا بطرفي الثنائية : بالمنهج من جهة كونه باحثا وبالشعر القديم من جهة انتمائه لتراثه .

وقد حاول الباحث التزام حد من الاعتدال في استثمار المدخل الشفاهي بتأكيده على مسالة الانتقال التي تمثلها القصيدة القديمة والذي التمس تجلياته في مستوى طبيعة الصورة الفنية عند تشبيه الأطلال بالكتابة

باعتباره ( تجسيدا لأحلام الشعراء في العبور الحضاري أو شعورهم بأنهم في سبيل ذلك العبور ) ولذلك كانت القصيدة بمقوماتها الفنية (معادلا سمعيا موضوعيا لهذا الشعور ) (عز الدين حسن البنا ،1989، ص : 11)

هكذا كانت القصيدة القديمة في وضع التداخل المنهاجي الذي استعاد قراءتها وبحث اشكاليتها ومن ثم فإن الطرح البنيوي يأتلف في العمق مع المنهج الأسطوري من حيث تأسيس البنيوية على استكشاف البنيات اللاشعورية في الأسطورة وفي أنواع الخطابات المختلفة ، ويأتلف في العمق مع المنظور الشفاهي الذي يستند إلى استكشاف نظم وتقاليد الثقافة الشفاهية التي تطوي في مضمارها مسار الوعي المرتبط باللاشعور الجمعي .

4/التجريب المنهجي : سلطة المنهج وسلطة التأويل

لقد كان التحليل البنيوي للقصيدة أحد الممارسات الفاعلة في الموقف النقدي المعاصر. فعبر تلك القراءة تم إخضاع القصيدة إلى صرامة وموضوعية التحليل الذي تطرحه البنيوية في نموذجها الانتروبولوجي لدى كلود ليفي ستروس ، ذلك النموذج الذي استعاده كمال أبوديب في كتابه « نحو منهج بنيوي في تحليل الشعر الجاهلي « مطبقا إياه على قصيدتين : الأولى معلقة لبيد التي وصفها بالقصيدة المفتاح والثانية معلقة امرئ القيس التي دعاها بالقصيدة الشبقية ( عبد الفتاح محمد أحمد ، 1984 ، ص : 212)

وقد جرى التحليل مرتكزا على مفهومي ستروس المطبقين على الأسطورة أولهما الوحدات التكوينية حيث قسمت القصيدتين إلى وحداتهما الأساسية مثل الوقوف على الأطلال ووصف الناقة ثانيهما : حزم العلاقات المتداخلة بين الوحدات التكوينية القائمة – كما يقتضي التحليل البنيوي – على أساس الموقف التقابلي . فمعلقة لبيد يحكمها تناقض أساسي تؤطره ثنائية الحياة /الموت . أما معلقة إمرئ القيس فتحكمها ثنائية ضدية بين سكون الأطلال /حيوية عاصف المطر والسيل وكانت محصلة القراءة تمايز القصيدتين في الرؤيا إذ تجسد الأولى رؤية جماعية بينما تجسد الثانية رؤيا فردية ( عبد الفتاح محمد أحمد ، 1984 ، ص : 212)

ولأجل هذا التداخل الذي ميز غالبا الموقف النقدي المعاصر تجاه القصيدة القديمة برزت القصيدة – في المستوى التأويلي – وهي تتلقى تجريبا قرائيا واسعا ومعقدا مشكلة ببؤرة الأسرار والخبايا اللامتناهية وكانت تلك الأسرار في جانب منها ترتبط بموقف انطباعي يتأسس على تعلق غامض بفتنة التراث ، الفتنة التي اتخذها الباحث جابر عصفور عنوانا لأحد كتبه ضمنه مجموعة منم المقالات في قراءة جوانب من قضايا الشعر القديم في عناوين دالة : النموذج الأصلي للشاعر، تحول النموذج الأصلي ، سحر المعلقة ، الاعتراف بالشاعر ، عالم الشعر الجاهلي ، حوار الكائنات الشعر والجن، حكمة اللذة ، حكمة التمرد..(جابر عصفور ، 2005 ، ص :13 ، 31 ،59 ، 99 )

إن المنهج يتخذ في الموقف العاطفي مجرد معلم لتحديد بداية جديدة لينطلق في صناعة المعنى على أطراف النص ، وفي هذا الاتجاه تندرج قراءات المدخل الأسطوري أو تلك المتداخلة معه حيث انبثقت المسلمة المركزية التي تربط القصيدة القديمة بأصل أسطوري شعائري متصل بعقل الجماعة ومصيرها .

وفي تلك المسلمة أمكن للباحث مصطفى ناصف الذي يوظف مقدمات منهاجيه مختلفة ويميل غالبا إلى موقف التعاطف مع النص حيث يعلق على صورة الفرس في شعر امرئ القيس مثلا:( ذلك الإنسان الكامل صورة لما يتشبث به الشاعر أملا في المستقبل ورغبة في قدر أتم من المناعة والحصانة ' إن صورة الفرس هي صورة الإنسان النبيل الذي ملأته العزة والثقة وعلينا ألا نغتر بهذه الأمور فهذه الصورة ذات صبغة إنسانية مثالية.. فالشاعر يبحث عن مجموعة من المثل يجسدها بطرق مختلفة ويرى أن الفرس.. هو مجمع الثورة الكامنة في عقله ..) (مصطفى ناصف ، 1982، ص :87)

ظهرت القراءة الثانية وهي تفتتح مجال الدلالة إلى الحدود القصوى التي لا تنضبط بغير هواجس الذات القارئة

. فالطلل أشبه بفكرة الأم الولود التي ينبثق عنها أبناء كثيرون والأبقار والظعائن والضبا أسرة واحة ..وصورة النخيل تدل على نشاط عقل الشاعر في عالم خيالي أشبه بالأماني أو رايات النصر..والهوادج مغطاة الثياب جديدة حسنة المنظر جيدة النفس لكنها حجب تحول دون التطلع إلى الظعائن فأصبحت أقرب إلى الأسرار التي تتجاذب العين والعقل ويبدو الفرس وكأنه نداء المجتمع كله يؤدي رسالة هجا وانقاد . أما لناقة فهي أشبه الأشياء بالأمومة القوية ...أما المنظر الذي شغل امرئ القيس فقد كان أشبه يبحث وجداني صعب قاس يحتاج إلى تضحيات وفداء وعذاب ولكنه يستأهل كل ما يبذل فيه من خوف وولاء معا (مصطفى ناصف ، 1982، ص 66:)

الواقع أن النزعة الانطباعية أو القراءة الاسقاطية التي ذهبت تملا الفجوات التي تطرحها اشتراطات الإجراءات المنهاجية ومفاهيم القراءة كانت تجسد – في الواقع – أفقا قرائيا يرتهن في أساسه إلى سلطة المنهج من جهة والى الاعتقاد المسبق لدى الباحثين بجدارة الشعر القديم .

ومن ثم بدا الموقف التأويلي للقصيدة في النقد المعاصر وهو يأخذ الطريق إلى الدلالة المفتوحة التي تماهى بين القصيدة وبين عالم أسطورة كما في المنظور الأسطوري البنيوي وتستجلب – كنتيجة لذلك – مختلف التصورات والأبعاد والرؤى الاعتقادية التي تناط بالأسطورة أو تلك التي تستند إلى مقارنة مرتكزة على موقف التعاطف غير المنضبط بمنهج محدد حيث تكتسب القصيدة حدود تأويلها من حساسية الذات القارئة وشدة إيمانها بسحر التراث وفتنته . إن تأويل القصيدة القديمة ظهر وهو ينجز مهمتين متكاملتين على غاية الخطر في مجال القراءة :

الأولى : إبراز طلائعية القصيدة القديمة كمنجز ثقافي لعصر ما قبل الإسلام

الثانية : جدارتها كتراث حي مؤهل بمقوماته الفنية والإنسانية على مواكبة هموم وآفاق قارئه المعاصر.

5/القصيدة القديمة : الاستحقاق الفني والتاريخي

وإذا كانت القصيدة القديمة قد افتتحت إشكالية العلاقة بالتراث انطلاقا مما أثارته أول الأمر في مستوى قضية النحل وعلاقاتها بالتراث الديني فإنها قد اكتسبت وعلى مدى القراءة المتكررة التي تعاقبت عليها – مجربة كل المناهج – جدارتها الفنية والثقافية وثرائها المتجدد

وإذ قد تم تجاوز فكرة النحل نسبيا ، فإن وحدة القصيدة القضية التي استقطبت جوانب هامة من الممارسة النقدية المعاصرة بدت وهي تحوز مسوغات فنية وبنيوية كل مرة سواء مع المنظور الأسلوبي البنيوي الذي جعل من مبدأ التقابل منطلقا لإضفاء مقولة الوحدة على النص القديم أم في المدخل الأسطوري حيث صيغت فكرة الوحدة بناء على وحدة النموذج الأسطوري الذي ترتد ليه القصيدة القديمة في تشكلها أما المدخل الشفاهي فقد اشتغل أكثر على الوحدة كتقاليد فنية تحكم بناء القصيدة ووحدتها .

إذا كان التحليل السابق قد أوضح ملامح الموقف النـقدي المعاصر في مقاربة القصيدة القديمة – من حيث استعادتها كمدونة ذات أبعاد إشكالية في قضاياها الكبرى – فإنه يبرز في النهاية أهمية الممارسات النقدية ومحمولها الثقافي الجدلي في العلاقة مع الماضي – التراث ومع التراكم المنهاجي المعاصر .

إن تلك الأهمية البالغة لتتأكد أكثر ونحن نرى قصيدة ما قبل الإسلام يعاد تلقيها حداثيا ليس من منطلق التوثيق أو الاحتفاء التاريخي فحسب ، ولكن من منطلق الموقع الإشكالي الذي ينفتح على ظهور أفق جديد

لقراءة التراث يعيد صياغة جمالية القيم الفنية والثقافية لأقدم مدونة أدبية عربية .وبهذا المعنى تبدو اشكالية القصيدة القديمة بل اشكالية التراث بمختلف جوانبها متوقفة على استثمار منظور القراءة المعاصر حيث يتم وضع النص/الاثر القديم امام منظومة المعايير الفنية والثقافية الحديثة أو أفق التوقع الجديد (Jauss .H .R' 2010 p :54 ) حيث ينهض القارئ طارا مرجعيا لمعنى النص وقيمته (عبد العزيز حمودة ، 1998 ، ص: 282 )

قائمة المصادر المراجع :


– إيفالد فاجنر ، الشعر العربي القديم :أسس الشعر العربي الكلاسيكي ، ترجمة : سعيد حسن بحيري ، ط1 01 ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة 2008

– بشرى موسى صالح ، نظرية التلقي :أصول والتطبيقات ، ط 01 ، المركز الثقافي العربي 22001

– جابر عصفور ، فتنة التراث ، كتاب العربي ، ط1 ، الكويت 32005

– حسن البنا (عز الدين ) ، الكلمات والأشياء التحليل البنيوي لقصيدة الأطلال في الشعر الجاهلي ، دار4 المناهل ن بيروت ، لبنان ، 1987

– طه حسين ، في الشعر الجاهلي ،الكتاب والقضية ، تقديم : عبد المنعم تليمة ط 01 ، دار رؤية للنشر5 والتوزيع ، القاهرة 2007

– ناصف ( مصطفى ) ، قراءة ثانية في شعرنا القديم ، ط1 دار الأندلس ، بيروت ، لبنان 1982 «استعمل6 مصطلح الشعر القديم بدلا من الشعر الجاهلي في اتجاه إلى تجاوز الدلالة القدحية التي يحملها مصطلح الجاهلية

– الغذامي ، القصيدة والنص المضاد ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 71994

– والتر أونج ، الشفاهية والكتابية ،ترجمة :حسن البنا عز الدين، مراجعة : أحمد عصفور عالم المعرفة ،8 عدد: 184 ، المجلس الاعلى الوطني لرعاية الثقافة الآداب والفنون ، الكويت 1994

– عبد الفتاح محمد أحمد ، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي ، ط 01 ، دار المناهل للطباعة9 والنشر ، بيروت 1984

–عبد العزيز حمودة ،المرايا المحدبة. عالم المعرفة ،عدد : 232 ،1998 الكويت10

11 –Jauss(H ;R) ' Pour une esthétique de la reception; Gallimard 'Paris 2010

12 –Foucault (Michel ) ' Les mots et les choses 'Edition Gallimard 2011